SEBHA UNIVERSITY JOURNAL OF HUMAN SCIENCES VOL.24 NO. 2 2025
DOI: 10.51984/JOHS.V24I2.3996

مجلة جامعة سبها للعلوم الإنسانية
Sebha University Journal of Human Sciences

Journal homepage: http://www.sebhau.edu.ly/journal/johs

# الخيل في ديوان الشّاعر العماني أبي الفضل (ت 1345 هـ)

بسّام بن بلقاسم البرقاوي

قسم اللّغة العربيّة، كلّية الآداب والعلوم الإنسانيّة، جامعة الشّرقيّة، سلطنة عُمان.

**الملخص**

نهتمّ في هذه الدّراسة بتدبّر قصائد الخيل التي نظمها الشّاعر العماني محمّد بن عيسى بن صالح الحارثي المكنّى بأبي الفضل. وممّا حفّزنا على الاهتمام بهذا الموضوع ندرة الدّراسات التي تصرف الجهد إلى تدبّر وصف الخيل عند هذا الشّاعر وغيره من الشّعراء العمانيين الذين برّزوا في هذا الغرض. ولمّا كان أبو الفضل شاعرا فارسا من فرسان عصره وقائد زمرة الخيّالة في محافظة الشّرقيّة بسلطنة عمان خصّصنا المبحث الأوّل لاستجلاء منزلة الخيل من حياة الشّاعر قبل أن نتدبّرها في شعره وخاصّة في القصائد التي سميّت بـ" الخيليات". وقد تبيّن لنا في ما تبيّن أنّ الخيل سجيّة في وجدان أبي الفضل. فهو قد نشأ عليها وشبّ في بيئة بينها وبين الخيل أسباب وأنساب. ثمّ أتينا بعد ذلك على المدوّنة الشّعريّة فوزّعناها على محورين اثنين: محور لتدبّر خصائص الخطاب الذي يكون فيه الخيل معنى من معاني القصيدة، ومحورًا لتأمّل القصائد التي اقتصر فيها القول على الخيل ولم يجاوزه إلى غيره من المعاني. وبمقاربة إنشائيّة قرأنا نماذج شعريّة أكثرها من قصائد " الخيليات". فخلصنا إلى جملة من النّتائج لعلّ أبرزها أنّ الحارثي كان شاعرا فارسا يسير على خطى المشهورين بنعت الخيل، فيردّد ما ترسّخ في المدوّنة الشّعريّة التّقليديّة حول الخيل منزلة وصورة. لكنّه في المقابل يأتي في غير قصيدة ببعض ما لم يأت به الأوائل. ومن ذلك أنّه، فضلا عن ذكرها مشتكيا متغزّلا ومفتخرا مادحا وراثيا متألّما وساخرا متهكّما حاورها محاورة طويلة وأنطقها بكلام لم ينطقه بها غيره من الشّعراء. وهو زيادة على وصفها في ساح المسابقات وفي ما طوّف من برور قد استنفر بعض الشّعراء ليتقارضوا معه القول في شأنها فرسا نبع من غير مثال وسُويَّ على غير منوال وفي شأنه فارسا مغوارا لا يشّق له غبار.

**الكلمات المفتاحية:**

الشّعر العماني
محمد بن عيسى بن صالح الحارثي
الخيل
الوصف

# Horses in the Diwan of the Omani Poet Abu al-Fadl (d. 1345 AH)

Bassem Ben Belgacem Bargaoui

Department of Arabic Language, College of Arts and Humanities, A 'Sharqiyah University, Sultanate of Oman

**A B S T R A C T**

In this study, we are interested in examining the horse poems organized by the Omani poet Mohamed bin Isa bin Saleh al-Harthi, also known as Abu al-Fadl. Our interest in this topic is motivated by the scarcity of studies that focus on the description of horses by this poet and other Omani poets who stood out in this regard. Since Abul Fadl was a horseman of his time and the leader of the cavalry in the Eastern Province of Oman, we devoted the first section to clarifying the status of the horse in the poet's life before examining it in his poetry, especially in the poems that he called “Khilayat”. We found out that horses are a part of Abul Fadl's consciousness and that he grew up in an environment where horses and horses are related to each other. We then turned to the poetic code and divided it into two axes: One to consider the characteristics of the discourse in which the horse is one of the meanings of the poem, and the other to consider the poems in which the discourse is limited to the horse and does not go beyond it to other meanings. In a structural approach, we read poetic examples, most of which are from the “Khilayat” poems. In conclusion we note that Al-Harthi was a horseman poet who followed in the footsteps of those famous for describing horses, echoing what was established in the traditional poetic blog about the status and image of horses. On the other hand, in other poems, he introduces some things that the first ones did not. For example, in addition to mentioning them as complainers, boasting, praising, praising, heirs, sufferers, and cynics, he has a long conversation with them and speaks in words that other poets did not use. In addition to

**Keywords:**

Omani Poetry
Mohamed bin Isa bin Saleh Al-Harthi
Horses
Description

*Corresponding author:
E-mail addresses: bassem.bargaoui@asu.edu.om

*Article History : Received 06 May 2025 - Received in revised form 02 August 2025 - Accepted 17 August 2025*

describing her in the arena of competitions and in the wilderness, some poets were inspired to say that she was a horse that sprang from no example and was equated to no other, and that he was a commanding knight who could not be outdone.

**المقدّمة**

بين الشّيخ محمد بن عيسى بن صالح الحارثي المكنّى بأبي الفضل والخيل قصّة طريفة لطيفة قد لا يتذوّق حلاوة فصولها إلاّ من أتيحت له فرصة العيش ولو لساعات وأيّام في البيئة التي نشأ فيها الشّاعر وترعرع. ونقصد صحاري ولاية "القابل" في "شمال الشّرقيّة" بسلطنة عمان. فهو وشاعر الشّرق- أحمد بن عبد الله الحارثي( 1930- 1995) - من أكثر الشّعراء عناية بوصف الخيل في الشّعر العماني[1]. كان في حياته " قائد زمرة الخيّالة والفرسان (...) وإليه تنتهي معرفة الخيل وسيطرتها، فله بها ولع وحنان، وله أسمى الذّكر في كلّ ميدان "[2]. وكان في أدبه محبّا للخيل عاشقا لها حتّى الرّميم. وآيات هذا العشق في الحياة الدّنيا عديدة وعلامات الوسم في الشّعر كثيرة.

فإذا قبضنا القول قلنا إنّ أبا الفضل كان للخيل ركّابا، وكان لها في شعره وصّافا نعّاتا. أمّا إذا تبسّطنا فيه قلنا إنّ حديث الخيل عنده لذيذ مشتهى، بل قلنا ما زال فيه رباط الخيل يعرفه في كلّ فصل من فصول حياته. ويكاد لا يغيب عن فنّ من فنون الشّعر التي نظم فيها سواء أورد الحديث عنها معنى من معاني القصيدة أم كان قصيدة قائمة الذّات، حتّى ليمكننا الزّعم أنّه لمخيّل للخيل أي خليق له. ولا أدلّ على ذلك من تخصيص قسم وافر من شعره أُطلق عليه اسم "الخيليات".

ورغم منزلة الخيل من مدوّنة الشّاعر لم نجد في حدود ما نعلم من أنجز بحثا حول أبي الفضل حتّى ينزّل شعره في هذا الغرض منزلته التي هو بها جدير. والحال أنّ هذا الشّاعر قد غلب عليه القول في الخيل حتّى اشتهر به. وهو أمر كان قد نبّه إليه محسن الكندي في أطروحته حول الشّعر العماني منذ حوالي ثلاثة عقود لما كتب يقول "يعدّ وصف الخيل أوّل مظاهر وصف الطّبيعة المتحرّكة. وينطلق الشّعراء فيه من مكانتها التّاريخيّة التي اتّصفت بها كأداة من أدوات الحرب، ورمز للنّخوة والشّجاعة. وقد تبوّأ الشّعراء العمانيون هذه المكانة فوردت في شعرهم على هيئة قصائد مكتملة على نحو ما نجد في ديواني: محمد بن عيسى الحارثي، وشاعر الشّرق. فهما يعدّان من أكثر الشّعراء عناية بوصف الخيل "[3].

وقد توقّف الكندي عند بعض قصائد أبي الفضل وأشار إلى مرجعياتها، وبيّن مظاهر التّقليد فيها مشيرا بطرف خفيّ إلى بعض مظاهر الطّرافة فيها. ولئن كنّا لا نختلف مع هذا الباحث في كلّ ما ذهب إليه فإنّنا نعتقد أنّنا إذا وسعنا النّظر في نصوص هذا الشّاعر ستنكشف لنا خصائص أخرى في القول سواء أتعلّق الأمر بالتّقليد أم بالتّجديد. والحقيقة أنّ الاعتناء بشعر الخيل في الأدب العماني يقتضيه سببان على الأقلّ: أوّلهما تاريخي- إن صدق التّاريخ في إنبائه- ذلك أنّ بعض الأخبار تروي أنّ حكاية بعض الخيل المسوّمة قد بدأت أوّل ما بدأت من عمان[4]. وثانيهما نصيّ إذ أنّ الشّعراء الذين غلب عليهم وصف الخيل وإن ساروا على سنن القول المألوفة فقد أبانوا عن أوجه طرافة وإضافة لا ينكرها دارس.

وقدرنا أنّ تقصيّ بعض تلك الأوجه تقصّيا أوليّا يقتضي منّا في مرحلة أولى جرد أكثر ما قاله أبو الفضل في الخيل وتصنيفه على نحو مخصوص. فإذا استقام لنا ذلك احتكمنا إلى منهجين اثنين في قراءة المدوّنة: أحدها أساسيّ وثانيهما تكميليّ. أمّا المنهج الأساسيّ فعماده المقاربة الإنشائيّة التي نروم من خلالها تدبّر خصائص القول الشّعريّ. وأمّا المنهج التّكميليّ فتاريخيّ به نسعى أن نطلّ على منزلة الخيل من حياة الشّاعر.

**المبحث الأوّل: الخيل في حياة أبي الفضل**

ولد الشّاعر محمد بن عيسى بن صالح الحارثي في قرية القابل بمحافظة شمال الشّرقيّة بسلطنة عمان. وترعرع في حجر والده الشّيخ عيسى بن صالح. ومن أهمّ العوامل التي أثّرت في حياته وأدبه " مجالسة والده المرتضى فقد كان مجلسه غاصّا بالعلم والعلماء والمتعلّمين، فلا يخلو من تحرير فائدة، أو تقييد شاردة، وكان أكبر أولاده سنّا وأكثرهم دراية وأدهاهم خبرة وتجربة للأمور، فكان يمارس حياة والده أعباء المهمّات، ويقوم في حل المشكلات، ويسعى بأمر أبيه الصالح في لمّ شعث المسلمين، كما ترى من رحلاته إلى الدّيار والقبائل سعيا وراء الصالح العام في رفع راية الإسلام " [5] .توفيّ في 8 جمادى الأول سنة 1345 هـ وعمره خمسون عاما[6].

ولعلّ المتتبّع لقصائد غير قليلة في شعره يدرك بسير مدى شغفه بالخيل في حياته وأدبه. ذلك أنّ المنزلة التي حظيت بها الخيل عند أبي الفضل هي التي دفعت محقّق ديوانه حسن بن خلف الرّيامي أن يثبت مقدّمة بقلم الشّيخ أحمد بن عبد الله بن أحمد الحارثي. وممّا جاء فيها قوله " وكان الشّاعر قائد زمرة الخيّالة والفرسان في عصره، وإليه تنتهي معرفة الخيل وسيطرتها، فله بها ولع وحنان، وله أسمى الذّكر في كلّ ميدان، وكان فارسا هصورا يقتاد أزمّة الخيل فتمرح في الحلبة به متسنّما صهواتها، وإذا نقع الصّريخ رأيته في الرّعيل الأوّل قد مارس الكرّ والفرّ، وعرف ما في الكور والحور وجالس قعقاع بن شور"[7].

**1-أبو الفضل عاشقا الخيل**

لا يبدو الحارثي في نظرنا مغاليا حين زعم أنّ أبا الفضل كان في حياته من الخيّالة -أي من أصحاب الخيول[8]. ففي شعره من الأدلّة " الواقعيّة " ما يشي بأنّ الخيل علق حبّ قلبه وملأ عليه حياته. ولعلّ من أكثر الأبيات تلخيصا لمنزلة هذا الحيوان في حياته قوله: { من الطّويل }

| | |
|---|---|
| وَإِنِّي شَغُوفٌ بالجيادِ ومُولعٌ | بِحُبِّ العتاقِ الجُرْدِ مِنْ غَيْرِ كُلْفةِ |
| إذَا مَا أَضَاعَ الخَيْلَ قَوْمٌ رَأَيْتَهَا | تَعَلّتْ لَدَيْنا مَنْزِلاً بالمجرَّةِ |
| وَنَقْضِي عَلَيْهَا حَقَّ رَبٍّ مُهَيْمِنٍ | وَنُشْرِكُهَا مَعِ آلنا فِي المَعِيشَةِ |
| وَحُبِّيَ مَغْرُوسٌ لَدَى فَرَسِي التِيّ | عَلِمْتَ فَجِئْنِي صاحِ مِثْلَ العَبّيةِ |
| هِيَ البَدْرُ والخَيْلُ والنّجُومُ وَفَضْلُها | عَلَى الخَيْلِ قَطْعًا مِثْلَ فَضْلِ الأَهِلَّةِ |
| وَقَدْ أَغْرَبْتُ فِي نَبْطِهَا يَوْمَ أَنْتَجَتْ | بِشُقْر شَمَالِيلٍ طِوَال الأعنّةِ |
| وَقَدْ زِدْتُ بالشَّقْرَا عُجَابًا لعلمْهَا | بفُرْسَانِهَا عِلْمَ الطّبيبِ بعلّةِ[9] |

يختزل هذا الشّاهد، حكاية أبي الفضل مع الخيل في حياته وفي شعره. وجوهر هذه الحكاية عُجْبٌ سرمديّ وعشق أزليّ. عجب قال عنه الجاحظ" لم تكن أمّة قطّ، أشدّ عُجُبًا بالخيل ولا أعلم من العرب"[10]. ففي هذه الأبيات يعبّر محمد بن عيسى الحارثي عن شغفه بفرسه" العبيّة" التي لا يعدل بها فرسا. فيأتي بثلاث مفردات من معجم الهوى: الشّغف والولع والحبّ. ويصف طبيعة ذلك الحبّ" من غير كلفة". وفيها اعتراف بمنزلة الخيل الأثيرة

لدى الشّاعر إذا قورنت بمنزلتها عند غيره" تَعَلَّتْ لَدَيْنا مَنْزِلاً بالمجرَّةِ". وفي صدر البيت الثّالث إحالة على المرجعيّة الدّينيّة في النّظرة إلى الخيل. وفي عجزه إشارة إلى المرجعيّة الحضاريّة التي تجلّي المرتقى الذي تبلغه لديه، مرتقى تتساوى فيه مع الأهل والبنين. ويتواصل الشّاهد واصفا الفرس وصفا غايته بلوغ كمال الصّفة في الموصوف. وينتهي الكلام بفخر ذاتي مداره على أنّ "الخيل أعلم بفرسانها". [11]

وإذ رمنا مزيد التّوسّع في المعاني التي رشحت في الأبيات السّابقة جاز لنا أن نرصد أربعة أوجه بارزة تسم علاقة أبي الفضل بالخيل. أمّا الوجه الأوّل فيختزل علاقة العشق التي جمعت بين الشّاعر والخيل. علاقة استعار لها أبو الفضل في هذه القصيدة وغيرها من القصائد ما جادت به اللّغة من مفردات الصّبابة والوجد، من ذلك قوله مبرزا منزلة فرسه العبيّة من قلبه:{ من الطّويل }

لَقَدْ جَلَّ عِنْدِي قَدْرُهَا وَمَكَانُهَا وَمَا الخَيْلُ حَلَّتْ مِثْلَهَا فِي فُؤَادِيَا

وَلَوْ تُفْتَدَى الأَرْوَاحُ كُنْتُ فَدَيْتُهَا وَهَانَ عَلَى نَفْسِي لَهَا بَذْلُ مَالِيَا[12]

ولا شكّ في أنّ هذا البعد الوجدانيّ العاطفيّ ممتدّ في أعماق الشّخصيّة العربيّة. يروى عن ابن عبّاس رضي الله عنه "كان داود نبيّ الله وخليفته في أرضه يحبّ الخيل حبّا شديدا، فلم يكن يسمع بفرس يُذكَر بعِتْقٍ أو حسن أو جرْى إلاّ بعث نحوه، حتّى جمع ألف فرس، لم يكن يومئذ في الأرض غيرها، فلمّا قبض الله داود، وورثه سليمان وجلس في مقعد أبيه قال :ما ورثنّي داود مالاً أحبّ إلى من هذه الخيل"[13]

وأمّا الوجه الثّاني فمتعلّق بالصّفات التي أسبغها على فرسه. فهو ينعت الخيل بالعتاق الجرد. وفرس عتيق: رائع كريم [14]. و" الجياد " من " يجود جودة - بالضّم - فهو جواد للذّكر والأنثى من خيل جياد وأجياد وأجاويد. وأجياد: جبل بمكّة -صانها الله تعالى وشرفها - سمّي بذلك لموضع خيل تبع، وسمي قعيقعان لموضع سلاحه. وفي الحديث :باعده الله من النّار سبعين خريفا، للمضمر المجيد، المجيد: صاحب الجواد، وهو الفرس السّابق الجيّد، كما يقال رجل مقو ومضعف إذا كانت دابّته قويّة أو ضعيفة"[15]. وهي البدر وبقيّة الخيول كواكب، نسلها كريم لا ينجب إلاّ الشّقر. والحقيقة أنّ هذه الأوصاف تقليديّة شائعة في الشّعر العربيّ. والحقيقة أنّ اقتفاء أبي الفضل لخطى السّابقين لا يقتصر على هذا النّموذج، بل يتجاوزه إلى نصوص عديدة نذكر منها قوله{ من الوافر }

هِيَ الفَرَسُ العَتيقُ وَخَيْرُ فَحْلٍ نَمَاهَا إنْ عَدَتْ قُلْتَ البُرَاقَا

هِيَ البَحرُ الغزيرُ وَلاَ مُجَارٍ إذَا قَبَّتْ مُؤَ لّه دِقَاقَا

إلى خَيْلِ الصَّحَابَةِ قدْ ترقَّى لَهَا أَصْلٌ به حَوَتِ السِّبَاقَا[16]

وعن هذه الأبيات كتب محسن الكندي يقول" في هذه الأبيات وصف مباشر للفرس، يغلب عليه التّقرير (هي الفرس – هي البحر) وتكثر فيه الصّفات التي تعرب عن كرم أصلها من أمثال (العتيق – الغزير – خير فحل نماها) كذلك بعض الصّور الأسطوريّة: صورة البراق، أو حوت السّباق، ولعلّ حرص الشّاعر على أن ينسبها إلى خيل الصّحابة يبرز إلى أيّ حدّ هي عزيزة عنده، معزّة تصل إلى حدّ التّقديس " [17]. وهذه النّعوت في مجملها ممّا ترسّخ في المدوّنة الشّعريّة حول وصف الخيل حتّى أنّها أصبحت لا تلفت الانتباه بحضورها بقدر ما تثير التّساؤل عن غيابها.

وأمّا الوجه الثّالث فمتعلّق بما يمكن أن نسميّه "الرّابط الأسريّ" الذي عبّر عنه الشّاعر أبو الفضل بقوله " وَنُشْرِكُهَا مَعِ أَلِنَا فِي المَعِيشَةِ". وهو معنى متجذّر في الدّين الإسلامي[18]، متداول في الشّعر العربيّ القديم. ذلك أنّ العرب لم تزل " تفضّل الجياد من الخيل على الأولاد، وتستكرمها للزّينة والطّرد. على أنهّم لَيطْوُوْنَ مع شبعها، ويظمئون مع ريّها، ويؤْثرونها على أنفسهم وأهلهم عند حلول الأزمة واللأواء، واغبرار آفاق السَّنَةِ الشّهباء. وعلى ذلك تدلّ أخبارهم وتشهد أشعارهم" [19]. وقد لا يخفى ما في هذه القصيدة من امتصاص لأبيات الأخطل (ت69 هـ) الشّهيرة (تنسب أيضا لعبد الله بن عبّاس): {من الوافر }

أحِبُّوا الخيلَ واصطَبِروا عليها فإنَّ العِزَّ فِيهَا والجَمَـالاَ

إِذَا مَا الخَيْلُ ضَيَّعَهَا أُنَاسٌ ضممناها فشاركت العِيَالاَ

نُقاسِمُها المَعِيشَةَ كُلَّ يَوْمٍ ونُلبِسُها البَرَاقعَ والجِلالا[20]

وأمّا الوجه الأخير فيحيل على البعد الدّينيّ في هذه العلاقة. ولهذا البعد في قصائد أبي الفضل مظهران أحدهما مضمونيّ وثانيهما شكليّ بنائيّ. ونعني بالمضموني استنفار الشّاعر في حديثه عن الخيل بعض الدّلالات الدّينيّة. وهي في هذا الشّاهد " وَنَقْضِي عَلَيْهَا حَقَّ رَبٍّ مُهَيْمِنٍ". وهي في غير هذا الشّاهد تناص مع بعض الآيات القرآنيّة والأحاديث النّبويّة مثل قوله: { من الطّويل}

بِهَا تُرْهِبُ الأَعْدَاءَ وَالخَيْرَ كُلُّهُ رُوي في نواصي الخَيْلِ شُدَّ بِعُقْدَةِ[21]

ولا يخفى ما في هذه الشّواهد من إحالة على ما ترسّخ عن قدسيّة الخيل في المخيال الإسلامي. قدسيّة اكتسبتها الخيل من حديث النّشأة وممّا قيل فيها في القرآن الكريم.[22] ونعني بالشّكل جنوح الشّاعر إلى ختم قصائده بمدح الرّسول صلّى الله عليه وسلّم. فهو قد أنهى قصيدته في وصف فرسه الدّهيم{ من الوافر }

وَخَيْرُ الخَتْمِ تَسْلِيمٌ زَكِيٌّ لأحْمَدَ مَا حَدَى الحادِي وَشَاقَا

وَتَابِعِهِ وآلٍ ثُمَّ صَحْبٍ فَأَضْحَى سَرَاةٍ جَرَّدُوا بيضًا رِقَاقَا

الدِّينُ مُنْتَشِراً عَلِيًّا وَأَمْسَى الكُفْرُ مُنْدَرِسًا مُحَاقَا [23]

إجمالا هذه بعض الملاحظات الأوليّة التي تدلّ في غير شكّ على ما سميّناه قصّة العشق التي جمعت بين أبي الفضل والخيل. قصّة نجد صداها مبثوثا في ديوانه عموما وفي القصائد الموسومة بـ"الخيليات" خصوصا. ومهما اختلفنا في قراءة هذه القصّة، فالثّابت أنّها ستبقى جزءا من تراث شعريّ عربيّ وجدانيّ فخريّ. ذلك أنّ " ثروة العربيّ هي شهرته وعائلته وحصانه وأسلحته "[24]. ويبدو أنّ أبا الفضل الذي رزق الذّكر والتّنويه وبلغ الغاية في الشّهرة، قد تمثّل هذا التّراث خير تمثّل ألم يقل في قصيدة له بمناسبة اشترائه الدّهيم:{ من الطّويل }

بِصَهْوَتِهَا عِزُّ الرّجال وَفَخْرُهُمْ وَكَنْزُهُمُ وَالذُّخْرُ فِي المُدَّلَهِمَةِ؟[25]

**2- الخيليات : فصول من سيرة أبي الفضل**

نجد في ديوان محمّد بن عيسى الحارثي عددا من القصائد سّميت بـ" الخليات ". وهي تحكي في مجملها أحداثا واقعيّة في حياته اتّصلت خاصّة بمسابقات واحتفالات أو ارتبطت برحلات داخل سلطنة عمان وخارجها. ومن ثمّة كان وصفه لها " يتّجه إلى الفخر، حيث التّركيز على صفات حسن السّلالة وعراقة النّسب، والقدرة على العدو، والفوز في المسابقات" [26]. أولى تلك القصائد نظمها في "مولى لآل سعد يدعى عبد الله أراد أن يتسنّم صهوة الفرس

العبيّة. فلم يستقر على ظهرها حتّى أردته على الأرض". وهي بائيّة تتألّف من اثنين وأربعين بيتا، مطلعها" {من الطّويل }

أَرَاكَ عُبَيْدَ الله نفسَكَ باطلاً تمُنيّكَ إذْ تبغِي العبيّةَ مَرْكَبَا[27]

وأنشأ في الشّخص نفسه قصيدة ثانية طالعها{ من الطّويل }

فلمَّا اسْتَوى في ظَهْرِهَا رَامَ قَهْرَهَا
فَجَالَ وَجَالَتْ واسْتَجَالَتْ وَعَرْبَدَتْ
فَمَا إِنْ تَرَى الأَبْصَارُ إلاَّ عجاجةً فَلاَحَتْ لَنَا كالظّبي تَعْدُو ولمْ يَكُنْ
فَقُلْتُ لها أينَ ابن قيسٍ أليسَ ذَا
فقالتْ بغيظٍ واللّجَامُ لِعَلْكَهَا
عَلاَمَ أُسَامُ الخَسْفَ فيكُمْ ألمْ أكنْ
خُذَا عَلِّلاَنِي من حَدِيثِ الأَحِبَّةِ بِمَا يشْفِي قلْبي مِنْ غَرامٍ وَلَوْعَةِ [28]

وقد ولّدت حادثة السّقوط حوارا مطوّلا بين الشّاعر وفرسه نقتصر فيه على الأبيات الآتية {من الطّويل }

بِعُنْفٍ وَأَهْوَى كَفَّهُ لِلأَعِنَّةِ
وَشَاظَتْ بِغَيْظ واسْتَشَاطَتْ بِزَفْرَةِ
ولا تسمعنَّ إلاَّ نواقيعَ رَعْدَةٍ
عَلَيْهَا الفَتَى بُسْطَامُ لَمَّا تجلَّتِ
هو الفَارِسُ المشهورُ فارس بهمَّةٍ
يصرُّ له صوتٌ كوقعِ الأَسِنَّةِ
لَدَيْكُمْ بطُرْفٍ أمْ بحالةِ خِسَّةِ [29]

إذا تأمّلنا حكاية الأحوال وحكاية الأقوال في هذا النّص جاز لنا القول إنّ الخطاب في هذه القصيدة بني على فعل وردّ فعل. فعبد الله أراد قهر الفرس وفاته أنّه ما هكذا تورد الخيل. ففي سنن النّسائي من حديث سلمة بن نفيل السّكوني، أنّ النّبي صلّى الله عليه وسلّم نهى عن إذالة الخيل، وهو امتهانها في الحمل عليها واستعمالها"[30]. ولم تقبل الفرس الإذلال والإهانة فردّت الصّاع صاعين وكان ما كان.

ولعلّ أهمّ ما يلفت الانتباه في هذه القصيدة ظاهرتان: تتمثّل الأولى في المساحة النّصيّة الشّاسعة التي امتدّ عليها الحوار بين الشّاعر وفرسه. وقد دار الكلام في هذا الحوار على ما يمكن أن نسمّيه "سياسة الخيل" التي يبدو أنّ عبد الله لم يكن عارفا بها، أو لنقل إنّه لم يضعها في الحسبان وهو يمتطي صهوة الفرس. والحقيقة أنّ هذ الحوار في مساحته ومضامينه يمثّل مظهرا طريفا يدلّ على أنّ الشّاعر جعل الفرس يدري المحاورة ويشتكي. وتتمثّل الظاهرة الثّانية في هذه القصيدة في ما يمكن أن نطلق عليه " الشّعر على الشّعر". ذلك أنّ الأديب أحمد بن حمدون قد أجاب عن هذه القصيدة بمطولة بلغ عدد أبياتها 43 بيتا طالعها{ من الطّويل }

تألّقُ برقٍ في ليال بهيمةٍ وثغرُ حبيبٍ باسمٌ بالمسرّة [31]

وقد دار فيها الكلام إلاّ أقلّه على الخيل. والحقيقة أنّ ظاهرة الشّعر على الشّعر في ديوان أبي الفضل شائعة ولّدتها الإجازات والأجوبة. وفي هذا الضّرب من تفاعل النّصوص لا نغفل للخيل ذكرا حميدا. فتفاعلا مع لاميّة أبي الفضل التي استهلها قائلا: { من الوافر }

أتتْ تَخْتَالُ تَرْفُلُ فِي الدَّلالِ محدّرة زَرَتْ نُورَ الهِلالِ [32]

" قال الشّيخ القاضي أبو الوليد سعود بن حميد: وقفت على رحلة للسّيد المفضال الأمير محمد بن عيسى فرأيتها بديعة في بابها. خريدة في نقابها، فائقة في معانيها، رائعة في مبانيها، فتطفّلت بهذه الأبيات تقريضا لها على رويّها ومنوالها وإن لم أكن من فرسان نضالها خدمة للأدب، ونبني المطارحة على المسامحة والسّتر مأمول{ من الوافر}

إِلَى العَلْيَاءِ يَرْحَلُ كُلُّ عَالٍ وَمَنْ طَلَبَ العُلَى سَهِرَ اللَّيَالِي
فَبِالتِّرْحَالِ يُدْرِكُ كُلُّ مَجْدٍ وَبِالتِّرْحَالِ يُجْلَبُ كُـلُّ غَالِي " [33]

وللشّاعر في " الخيليات " أيضا قصيدة في خمسين بيتا نظمها " في من نصحه أنّ يتسنّم صهوة الخيل. فأبى ذلك. فلمّا ركب فرسه العبيّة سقط منها ". وقد افتتحها بمقطع غزليّ قائلا:{ من الرّمل}

ما شَجَا قلبي غزالُ المُنحنى إنْ مشَى في القَزِّ يومًا أو رنَا [34]

وقال أيضا "في مولى لآل كندة اسمه عبيد لما ألقته فرسه الدّهيم وذلك بعد أن نصحه عن ركوبها فركبها وحفرت به حفرة عظيمة وألقته على وجه الأرض ومكث أيّاما مريضا". والقصيدة بائيّة، عدد أبياتها خمسة عشر طالعها:{ من الطويل}

عبيدُ عبيدٌ منْ دهاكَ وما آلذي دعاكَ إلى أنْ ترتقي مركبًا صَعْبَا [35]

وقد يبدو من خلال تكرار الحديث عن حوادث سقوط الفرسان أنّ أبا الفضل كان يوجّه رسائل واضحة لمن يريد ركوب الخيل. ذلك أنّه " ينبغي لمن يُريد التّصرُّف على الدّوابّ أن يتعلّم ما لا غنىً به عن معرفته، من إحسان الرّكوب على العُرَى وعلى السَّرج وإمساك العِنان، ويتعلم أصولاً من أعمال الفروسيّة، فيستعين بها على ركوب الخيل والثّياب عليها"[36]. وقال في مسابقة خيليّة وقد أطلقوا جيادهم مع بعض إخوانه وكان على فرس شقراء. والقصيدة رائية تتكوّن من سبعة وأربعين بيتا، يذكر في فاتحتها فرسه الشّقراء فيقول{ من مجزوء الوافر}

أقولُ لمن يُسابُقني رُويدكَ أرجعِ البصرَا
ولا تغترَّ بالشّقْرا سَتَتْبَعُ سالفًا غَبَرا [37]

وفي هذا النّصّ ما يؤكّد استمرار بعض التّقاليد العربيّة وإن تغيّرت الأهداف والرّهانات أحيانا. فقد " كانت العربُ تخاطر على سباق خيلها، وتسمّي ما تجعله للسّوابق خَصْلاً، ورهاناً، وتضعُه في طَرَف الغاية التي تجري إليها، على رأس قصَبة من قصَب الرّماح .وهو قولهم في المثل :حاز قَصَبَ السَّبْق، وإنما يعْنُون هذا وتسمّي أيضاً الغاية :المَدَى، والأَمد."[38] ونظم قصيدة في رثاء فرسهم المصنّة طالعها:{ من البسيط}

فَقْدُ المَصَنَّةِ هَدَّ الصَّبْرَ وَالجَلَدَا وَقَدْ أَذَابَ مِنَ الأَجْفَانِ مَا جَمَدَا [39]

ونظم قصيدة من واحد وعشرين بيتا في رثاء فرسه العبيّة. قال في مطلعها :{ من الطّويل}

جَرَى قَلَمُ البَارِي عَلَى كُلِّ نَسْمَةٍ بموتٍ فَكُلُّ الخلق يصبحُ فانيَا [40]

فلمّا " اشترى الدّهيم عوضا عن العبيّة في 12 ذي القعدة سنة 1358 هـ" نظم تائيّة تتألّف من ستّة وعشرين بيتا افتتحها قائلا: { من الطّويل}

رَقَا دَمْـعُ عَيني اليَوْمَ والنَّفْسُ قَرَّتِ وَزَالَتْ همُومٌ مِنْ فُؤادي وَوَلَّتِ
وَأَصْبَحْتُ مَسْرُورًا كَمَا شِئْتُ حينمَا بِإصْطَبْلِها شَمْسُ الدُّهَيم تَجَلَّتِ

41

وقد لا نبعد في التّأويل إذا ذهبنا إلى أنّ ديوان أبي الفضل كان شاهدا على ما أنيط بعهدته من وظائف اقتضت في ما اقتضت الرّحلة والتّرحال، وحسبنا شاهدا ما ورد في رحلة إلى البحرين. يقول أبو الفضل: { من الوافر}

فَقُرْبَتِ المَطِيُّ لَنَا فَقُمْنَا ... عَلَيْهَا كَالبُزَاةِ على التِّلاَلِ
إِلَى إِبْرَا وَحَادِيهِنَّ يَشْدُو ... بِأَصْوَاتٍ تُسَلِّي كُلَّ بَالِ
بها قِلْنَا وَبِتْنَا ثُمَّ مِلْنَا ... عَلَى الأَكْوَارِ شدًّا بالرِّحَالِ
قَرِيبًا مِنْ فَلِيجِ الشَّامِ بِتْنَا ... وَبُوشَرُ تَبْتَغِي شَرَفَ الوِصَالِ
بِهَا الشَّهْمُ الخَلِيلِيُّ المُفَدَّى ... حَلِيفُ المَكْرُمَاتِ أَبُو هِلاَلِ
أَتَيْنَاهَا ضُحى وَالخَيْلُ تَعْدُو ... لِلُقْيَانَا بِهَاتِيكَ القِلاَلِ
أَنَخْنَا اليَعْمُلاَتِ بِهَا وَقُلْنَا ... رَمَاكِ اللهُ يَوْمًا بِالخَبَالِ
غَدَتْ بِالبَيْنِ تُعْلِنُ يَوْمَ سَارَتْ ... عَنِ الأَحْبَابِ نُوذِنُ بِانْفِصَالِ[42]

يصوّر هذا المقطع بعضا من فصول رحلة الشّاعر إلى البحرين. والحقيقة أنّ النّصّ في مجمله كان عبارة عن لوحات تمثّل الرّحلة في جميع مراحلها. ومن ثمّ كانت الإحالات المرجعيّة بارزة من خلال ظاهرة التّدقيق في الوصف ومن خلال الإشارات المكانيّة (إِبْرَا - فَلِيجِ الشَّامِ- وَبُوشَرُ) والزّمانيّة (قِلْنَا وَبِتْنَا - أَتَيْنَاهَا ضُحى) والأسمائيّة (أَبُو هِلاَلِ). وهذه المشاهد التي ترسم لنا الشّاعر فارسا يضرب في أرض عمان وفي غيرها من الأراضي شائعة في قسم الخيليات. وغالبا ما يكون فيها الكلام على الخيل تقليديّا يحيل على نفاسة الأصل أو على ما تتميّز به الفرس من سرعة.

وعموما تدلّ الشّواهد السّابقة – وغيرها شائع – على أنّ أبا الفضل قد قال فأكثر القول في الخيل حتّى أمكن جمع قصائده فيها في قسم سمّي " بالخيليات ". والنّاظر في هذه القصائد أيضا يلاحظ أنّ أبا الفضل على دراية دقيقة بصفات الخيل وأنسابها وصفاتها حتّى لنزعم أنّه قد فرُس أي حَذِقَ أَمر الخيل[43]. ولا غرابة في ذلك وهو ابن بيئة تذكّر بأنّ الخيل تشغل " في أنسابها وصفاتها وإعدادها شطرا واسعا من تفكير العربيّ وحياته، وما ذاك سوى تفسير لخصائصه الفطريّة من جهة، وتكيّفه مع الواقع من جهة أخرى". [44] لا عجب والأمر على هذا النّحو أن ينظم معاصروه شعرا يحدّث بمنزلة أبي الفضل شاعرا فارسا وحسبنا شاهدا قول أحمد بن حمدون{ من الطّويل }

أَتَتْهُ قَوَافِي الشِّعْرِ تَسْعَى مُطيعةً ... فَأَحْكَمَهَا نَظْمًا بَدِيعًا بِفِكْرَةِ
نَمَتْهُ إِلَى العَلْيَاءِ صَهْوَةُ أَشْقَرٍ ... كَأَنَّ الثُّرَيَّا بَيْنَ عَيْنَيْهِ حَلَّتِ[45]

**المبحث الثّاني: الخيل في ديوان أبي الفضل**

يستطيع الدّارس لديوان أبي الفضل أن يجعل شعره في الخيل صنفين: أمّا الصّنف الأوّل فيكون فيه الكلام على هذا الحيوان مكوّنا من مكوّنات القصيدة ومعنى أساسيّا من معانيها. فهو إن نسب أقام الاستهلال على فكرة الثّواء والرّحيل. وهو إن صرف قوله إلى أصفيائه ذكر الخيل ذكرا جميلا. وهو إن مدح أكّد أنّ "الْخَيْل أَعْلَمُ بِفرْسَانِهَا"[46] وهو إن رحل في شعره جعل الكلام عليها كاللاّزمة الشّعريّة يتوكّأ عليها للحظات ثمّ يمضي لتفريع المعاني وتوسيع الدّلالات. وأمّا الصّنف الثّاني فيكون الكلام فيه قصيدة قائمة الذّات تدور فيها المعاني الشّعرية كلّها على الخيل ولا تتعدّاه إلى غيرها من المعاني. وسنقتصر في التّمثيل لهذين الضّربين من كيفيّة حضور الخيل بنموذجين لكلّ ضرب.

1- **الخيل معنى شعريّا**

يقول أبو الفضل في مطلع قصيدة " وقد سافر إلى زنجبار فاعترضه مانع وكبا عزمه عن السّفر ورجع من الهند في الخامس من المحرم سنة 1358 هـ): { من الوافر }

أرقْتُ وَحُرِّمَتْ عيني الرُّقادا ... وآلفت الوَسَاوسَ والسُّهادَا
إذا ما اللّيلُ أرْخَى من سُتورٍ ... رأيتُ الهمَّ يحتشدُ احْتشَادَا
أبيتُ أسامرُ التّذكار طورًا ... لمن أهوى وملكني القيادَا
وأخرى انتظي سيفَ الأَمَاني ... وَوَهْنًا أمْتَطِي أَمَلِي جَوَادَا
وبالبَيْدَاءِ حينًا والصَّحَارِي ... وأجتازُ الرّوابيَ والوهادَا
وتارات بسوح الدّار أمْشِي ... واستجلي الشّماليلَ الجيادَا [47]

قد يبدو أنّ الشّاعر لم يغادر من متردّم في وصله بين معاني الشّكوى واستنفار القول على الخيل. فإذا سلّمنا بأنّ الشّاعر القديم يجعل قسم الرّحلة في وجه من وجوهه " منقذا " من الأطلال البالية و" هروبا من " وجع الإحساس بالفراغ العاطفي[48] قلنا إنّ أبا الفضل أمضى الهمّ عند احتضاره بالخيل. فهو لم يجد حلاّ للتّخلّص من الأرق والسّهاد سوى أن يضرب في الصّحاري وأن يصعّد ويصوّب في الرّوابي والوهاد وسيلته في ذلك الخيل وأي خيل هي: شماليل جياد.

ولا يقتصر احتفاء أبي الفضل بالخيل على النّسيب، بل إنّه يشيع في جميع الأغراض التي نظم فيها. يقول مرحّبا بالشّيخ سليمان باشا الباروني[49] واصفا مشهد استقباله في عُمان في صورة مهيبة توحي بمنزلة الزّائر في قلوب العمانيين:{ من البسيط }

العِزُّ في الشَّرْقِ فانْزِلْ أَكْرَمَ النُّزُلِ ... بَلَغْتَ مَا تَبْتَغِي مِنْ غايةِ الأَمَلِ
إنَّ البَشَائِرَ وافَتْنا بطلعَتِكُمْ ... فَالدَّهْرُ في زَجلٍ والكُلُّ في جَذَلِ
حُيِّيتَ مِنْ مَوْكِبٍ حُفَّتْ جَوَانِبُهُ ... بِعِثْيَرِ النّقعِ بَيْنَ الخَيْل والإبِلِ
وللْفَوَارِسِ فَوْقَ الخَيْلِ هَيْنَمَةٌ ... وَلِلْمَدَافِعِ رَنَاتٌ عَلَى القُلَلِ
تحرّكتْ هِمَمُ الدّنيَا بأجمعِها ... عُمَانُ حتّى عَلَتْ فخْرا عَلَى زُحَلِ[50] ... واسْتَيْقَظَتْ لِقُدُومِ القَائِدِ البطلِ
أَعْنِي سُليمَانَ باشَا مَنْ بِهِ شَرُفَتْ

تندرج هذه القصيدة ضمن تيّار شعريّ سمّاه محسن الكندي " المدرسة العربيّة/ العمانيّة التي " تخرّج منها شعراء مثّلوا خارطة واضحة المعالم لسائر الأغراض التّقليديّة وبالأخصّ غرض المناسبات الذي أخذ مساحة كبيرة من مضامين الشّعر العماني" [51]. وفيها يصف الشّاعر أبو الفضل مشهد احتفاء حقيقي. مشهد استقبال بطل من أبطال الإباضيّة الذين خلّدوا أسماءهم في تاريخ ليبيا الحديث. ومن آيات إكرام المرحّب به وإجلاله اجتماع الجياد المسوّمة والإبل في موكب الاحتفال. مشهد تناغمت فيه هينمة الفرسان برنات المدافع وتجاوبت. وأضاف متغنيّا ببطولته خلال الحرب اللّيبية الإيطاليّة: { من البسيط }

تروي مفاخرَهُ أقرانُه سندًا عَنْ صهْوةِ الخيلِ والهنْديّةِ الذُّبلِ
فاسْأل هُديتَ بني الطّليانِ مَا يومَ الكِفاحِ ويومَ الرّوعِ والفَشَلِ
وجَدُوا قلبٌ يرى غير رعديد ولا وكل
ينبئكَ مخبرُهُم أنّ الهمام لهُ بيضًا وَيُصْدِرُها حُمْرًا بِلاَ وجَلِ
تُروي الرّماحَ يَدَاهُ حِينَ يوردُها لَكِنْ عَلَيْهَا حَرامٌ حَوْزَةُ الكَفَلِ
خُيولُهُ للقَنَا حُلّتْ قلائِدُها والخَيْلُ سَابقةٌ،والسَّيْفُ في
فالرُّمحُ حاميةٌ والدِّرْعُ سَابِغَةٌ شُغُلِ[52]

لا غرابة أن يذكر أبو الفضل الخيل في سياق مدحه لبطولة الباروني. ولا عجب أن يتغنّى بذلك مصوّرا إيّاه شهير المناقب عليّ المراتب في البيت الأخير من الشّاهد. فقد استقرّت الخيل منذ نشأتها معيارا لقهر الأعداء. ذلك أنّ" جيّد الخيل من أنفس ما كان يعدّ للأيّام والغارات والحروب الجاهليّة. فقد كانت الخيل تنتقى وتربّى وتدخر بحرص شديد لأوقات الحاجة. وكان الجاهليّ يؤثرها في العناية والغذاء على أفراد أسرته لأنّها وسيلته الأولى في السّيطرة على الفضاء الحربيّ سواء في الهجوم والغلب أو في الهروب والمنع " [53].

ومثلما نظم الشّاعر قصيدة في استقباله نظم قصيدة قي توديعه فقال

هذا البارونيّ قدْ شَدَّ الرِّحَالَ وَتَاقْ
إلى المَوْطنِ مِنْ بَعْدِ اشتدادْ الوثاق
زار عمان وقد زينت بخيل عتاق [54]

## 2– الخيل غرضا من أغراض القول

نهتم في هذا القسم الأخير من الدّراسة بنموذجين: الأوّل مرثيّة قالها أبو الفضل في فرسه العبيّة. والثّاني قصيدة في غرض الرّحلة نظمها الشّاعر وهو يشدّ الرّحال إلى البحرين، وكنا قد توقّفنا سابقا عند مقطع منها.

**النّموذج الأول**: إذا نظرنا في قصيدة رثاء العبيّة لاحظنا أنّ الشّاعر وإن حافظ على البنية الثّلاثيّة المألوفة في رثاء الأشخاص، فقد رسم فيها مشهدا مأسويّا طريفا نستشعر فيه حرارة العاطفة وصدقها لما أوجعها الفقد وطوّح بها الغياب.[55] يقول في الاستهلال ناسجا على منوال شعر الرّثاء في التّذكير بحتميّة الموت:} من الطّويل }

جَرَى قَلَمُ البَارِي عَلَى كُلِّ نَسْمَةٍ بموتٍ فكُلُ الخلْقِ يُصْبِحُ فانيَا
وَقَدْ وَجَبَ التَّسْليمُ مِنّا لأمرهِ فَكُلُّ قضاءِ سوفَ يُصْبِحُ مَاضيَا
له الخلقُ كلٌّ من جمادٍ وناطقٍ وكلّهمُ فانٍ فمَا الخَلْقُ باقيَا

ثم ينتقل إلى وصف أفعال الفرس وأحوالها قبيل الموت فيرسم لنا مشهدا دراميّا مأسويا، مشهدًا يجسّد وجدان الحاسة وإحساس الغريزة:{ من الطّويل }

وَلَمّاَ أَحَسَّتْ بالتّنائي وأيقنَتْ فِرَاقا وأنْ لاَ بَعْدَهُ منْ تلاقيَا
أتتْ نحو اصطبلٍ لها ثم صهيلاً وَقَدْ أَبْكَى العُيونَ البواكيَا
ردّدتْ
تُشيرُ إلى توْديعنا وَلَكَمْ لها مناقبٌ يُبديها جَهَــارا لسَانيَا

ويكون عجز البيت الأخير الذي أبان الشّاعر فيه حسن تخلّص قادحا على تعداد مناقبها:{ من الطّويل}

إذا ما عَدَتْ تَجْرِي كَرِيحٍ تَخَالُهَا بِسَاطَ ابنِ داودَ عَلَيْهِ سَلاَمِيَا
وإنْ هُذّبَتْ تُبْدِي العُجَابَ وَلَمْ تَجِدْ إلى غَيْرِهَا في مَحْفَلِ النَّاسِ رَائِيَا
وَإِنْ رُكِبَتْ فِي مَطْلَبٍ بَعْدَ غايةٍ يَنَالُ عَلَيْهَا الطَّالِبُونَ الأَمَانِيَا
لَقَدْ كَمُلَتْ حُسْنًا وَصُنْعًا وَمَخْبِرًا وَشَكْلاً وَأَفْعَالاً تُحير المَرَائِيَا
وَلَيْسَ لَهَا فِيمَا عَلِمْنَا مُشَابِهٌ وَمِثْلُ إِلهَيِ قَدْ بَرَاهَا كَمَا هِيَا

يجري أبو الفضل في تعداد مناقب العبيّة على منهاج الأوّلين في وصف الخيل. فيأتي بصورة تشبيهيّة حسيّة استقاها من مصادر دينيّة "بساط ابن دواد" حتّى يتغنّى بسرعة عدوها. ثمّ يسلك مسلكا حجاجيا في تقصيّ صفات العبيّة وأفعالها. فيقلّب أوجه الخطاب مستعملا صيغة الشّرط (إن هذبت، إن ركبت). ثمّ يجمل القول عنها ملوّحا بأنّ صورتها لم يخلق مثلها في الخيل، تاركا القارئ يتخيّل ما شاء من صور عن هذه الفرس التي لا شية فيها. فهي قد "كملت حسنا وصنعا ومخبرا وشكلا وأفعالا" اكتمالا يوحي بأنّها نبعت عن غير مثال أو سوّيت على غير منوال.

**النّموذج الثّاني: قصيدة في غرض الرّحلة**

يتمثّل النّموذج الثّاني في لاميّة قالها الحارثي في غرض الرّحلة، جاء في عتباتها: " وهذه الرّحلة الجميلة في سفرهم إلى البحرين " ويمكن أن نستجلي في هذه القصيدة قسمين كبيرين قسما استهلاليّا وقسما يصف الرّحلة في أطوارها المختلفة. وسار أبو الفضل في الاستهلال على ما درج عليه القدامى من ابتداء بالنّسيب مستدعيا صورة العاذلة التي تسعى بما فطرت عليه من غنج ودلال أن تثنيه عن الرّحيل الذي طوّح بها: { من الوافر }[56]

أتتْ تَخْتَالُ تَرْفُلُ فِي الدَّلالِ محدّرة زَرَتْ نُورَ الهِلالِ
وَحَلَّتْ جَانِبِي وَشَجَتْ بِعُتْبٍ أَحَبَّ إِلَيَّ مِنْ عَذْبٍ زُلاَلِ
وَدَمْعُ العَيْنِ يَذْرِفُ بانْهِمَالِ
وَقَالَتْ فِي انْدَهَاشٍ فَدَيْتُكَ فِي ابْتِعَادٍ وارتحَالِ
وانْكِسَارٍ زمانكَ في انزعاج وانتقالِ
إِلَى حَتَّى أَشُقيقَ رُوحِي
قَلَيْتَ وِدَادَنَا وأبيت إلاّ

تحضر صورة العاذلة بمعانيها التّقليديّة ساعية إلى ثني الشّاعر عن التّرحال. فهي تعاتبه في استعطاف واستلطاف وفي احتجاج وانتصاف " وبعض اللّوم معنفة" عسى أن تثنيه عن الرّحيل، غير أنّ الشّاعر لم يستجب لطلبها وإن ترفّق في إجابتها مشيرا إلى الأسباب التي تجعله لا يؤوب من سفر إلاّ " وأزعجه رأي إلى سفر" : {من الوافر }

فَقُلْتُ لَهَا لَقَدْ فَتَّتِ قَلْبِي بِعُتْبِكِ فارْفَقِي لُطْفًا بِحَالِ
وَقَدْ أَذْكَيْتِ فِي الأَحْشَاءِ نَارًا لَهَا لَهَبٌ تَسَعَّرُ باشْتِعَالِ
بِمَنْ جَعَلَ الجَمَالَ بَلاَيَ مِنْكُمُ وَأَنْشَأَ للنَّوى بُزْلَ الجِمالِ
لَئِنْ شَطَّ المَزَارُ بِنَا بعَادًا فَمَا أَنَا عَنْ هَوَاكُمْ قَطُّ سَالِ
كَعَهْدِكُمُ فُؤَادِي لَوْ نَبَشْتُمْ أما صاغُ العزيزِ لَدَى الرِّحَالِ
وَلَكِنْ والدي القطْبُ المُرَجَّى له سَفَرٌ وآذَنَ بارتحَالِ
فَهَا أَنَا ذَاكَ لاَ أُصْغِي لِعَذْلٍ وَلَسْتُ بِسَامعٍ أَبَدًا لقالِ

وإذا تركنا الحوار الذي يؤرّخ في وجه من الوجه لسيرة الشّاعر ومنزلة عائلته في المجتمع العماني إلى المدح وجدنا أبا الفضل يمدح حمد بن عيسى بما حاز من خيل عتاق أجاود يقول: {من الوافر }

نَزَلْنَا فِي حِمَى حَمَدٍ بْنِ عِيسَى مِنْ آلِ خَلِيفَةٍ يَا خَيْرَ آلِ
عَظِيمُ الصِّيتِ ذُو كَرَمٍ وَمَجْدٍ وَأَخْلاَقٍ عَدِيمَاتُ المِثَالِ
بِذَرْوَةِ قَصْرِهِ العَالِي بِنَاءٌ حَكَى غُمْدَانُ فِي العُصُرِ الخَوَالِي
تَرَى مِنْ حَوْلِهِ الجُرْدَ المَذَاكِي طِمِرّاتٍ تَعَسَّفُ بِالذِّيَالِ
فَمِنْ حمُرٍ وَمِنْ صُفْرٍ وَكُمْتٍ وَمِنْ شُقْرٍ تَرَدَّدُ بِالصَّهَالِ
وَلَمْ يَسْتَغْنِ عَنْ رَبْطَ العَوَادِي بِآلاَتٍ تُصَوِّتُ بِالدَّوَالِ
فَنَحْنُ العُرْبُ مِنْ سَلَفٍ قَدِيمٍ مركبنا الصّواهلُ في المجالِ
شَماليلٌ تَقَاسَمْنَ المَنَايَا بِيَوْمِ الكَرِّ فِي وَقْتِ النِّزَالِ
ترى باليعملاتِ كثيرَ عَدٍّ له نظرٌ بهن وكلَّ عالي[57]

يهمّنا في هذا المقطع أن نتوقّف عند بعض معاني المدح بالخيل ناظرين في النّعوت التي وسم بها الشّاعر هذا الحيوان. ونهتمّ خاصّة بالجرد المذاكي والشّماليل. ثمّ نعرّج على الألوان التي جاءت على كلّ شكل ولون. فالمذاكي هي " الخيل التي أتى عليها بعد قروحها سنة أو سنتان، الواحد مذك، مثل المخلف من الإبل. والمذكي أيضا من الخيل: الذي يذهب حضره وينقطع. وفي المثل: جري المذكيات غلاب، أي: جري المسان القرح من الخيل أن تغالب الجري غلابا، وتأويل تمام السّن النهاية في الشّباب، فإذا نقص عن ذلك أو زاد فلا يقال له الذّكاء.[58]

والشّماليل دلالة على الفحولة " وأشمل الفحل شوله إشمالا: ألقح النّصف منها إلى الثلثين، فإذا ألقحها كلّها قيل أقمها حتىّ قمت تقم قموما. والشّمل بالتحريك: مصدر قولك شملت ناقتنا لقاحا من فحل فلان تشمل شملا إذا لقحت. المحكم: شملت الناقة لقاحا: قبلته، وشملت إبلكم لنا بعيرا أخفته واليَعْمَلُ" الناقَةُ السَّريعةُ اشْتُقّ لها اسمٌ من العَمَلِ ، و الجَمْعُ يَعْمَلاتٌ، و أَنْشَدَ ابنُ بَرّي للرَّاجز: يا زَيْدُ زَيْدَ اليَعْمَلاتِ الذُّبَّل تَطَاوَلَ اللَّيْلُ عليكَ فانْزِل ، في المُحْكمِ: اليَعْمَلُ عنْد سِيْبَوَيْه اسمٌ لأنَّه لا يقالُ جَمَلٌ يَعْمَلٌ و لا ناقَةٌ يَعْمَلَةٌ ، إنّما يقالُ يَعْمَلٌ و يَعْملةٌ ، فيُعْلَم بهما البَعيرُ و الناقَةُ، و لذلِكَ قالَ: لا نَعْلَم يَفْعَلاً جَاءَ وَصْفاً، و قالَ في بابِ ما لا يَنْصرف: إنْ سَمَّيته بيعَملٍ جَمْع يَعْمَلَة فحَجِّرْ بلفظِ الجَمْعِ أَنْ يكونَ صِفَة للواحد المُذَكَّر، و بعضُهم يَرُدُّ هذا و يَجْعَل اليَعْمَلَ وَصْفاً[59]

وإذا تركنا أسماء الخيل إلى ألوانها ظهر لنا واضحا رغبة الشّاعر في استقصاء ألوان الخيل وذلك بتصويرها في أحسن صورة وإظهارها في أتمّ حلية.{ من الوافر}

فَمِنْ حمُرٍ وَمِنْ صُفْرٍ وَكَمْتٍ وَمِنْ شُقْرٍ تَرَدَّدُ بِالصَّهَالِ

يحيل الصّدر على أصلين من أصول الألوان التي تعرف بها الخيل. فأصول الألوان في الخيل " أربعة :بياض، وسواد، وحمرة، وصُفْرة. والحقيقة أنّ الأصل البياض والسّواد، لأنّ الحمرة والصّفرة إليهما يرجعان "و "الحمرة :الأحمر الخالص إذا اسودَّ عرفه وذيله فهو (وَرْد )، والأنثى (وردة) والجمع (وِرَادٌ )، فإن كانت حمرته في سواد فهو (كُميت )، وكذلك الأنثى بلفظ الذّكر، وكذا هو مصغّر؛ لا يقال كَمْتٌ ولا كمتة، فأن اشتدّت حمرته في السّواد فهو (كُمَيْتٌ مُدمَّي )، فإن صفرت حمرة الوَرْدِ شيئاً من غير سواد، وعرفُه وذيلُه إلى البياض. والصّفرة :الأصفر الخالص إذا كان بلون الذّهب فهو أصفر فاقع[60]. واستقرّت مفردة " شقر" في العجز تذكّر بما وقر عند السّلف من تفضيل لشقر الخيل. عن ابن عباس رضي الله عنه أنّ رسول الله صلى الله عليه وسلم قال:" يُمن الخيل في شُقْرها" .[61] و"سأل سليمانُ بن عبد الملك موسى بن نُصَيْر حين قدم من الأندلس فقال :أي الخيل رأيتَها في تلك البلاد أصبر؟ قال :الشُّقر." [62]

وإجمالا كيفما نظرنا إلى حضور الخيل في ديوان أبي الفضل وجدنا في أسمائها وصفاتها وفي أحوالها وأفعالها ما يؤكّد بصورة أو بأخرى حكاية العربي المقدّسة مع الخيل. فهي " رمز العزّة والنّخوة ورمز الخير والبركة لما ورد في الحديث من أنّ الخير معقود بنواصيها وأنّ اسمها مرادف للخير " [63] بل إنّ العرب لم تكن "تَعُدُّ المال في الجاهليّة إلا الخيل والإبل، وكان للخيل عندها مزيّة على الإبل، فلم تكن تَعْدِل بها غيرها، ولا ترى القوّة والعزَّ والمنعة بسواها، لأنّ بها كانوا يدافعوا عن غيرها مما يملكون، ويمنعون حريمهم، ويحمون من وراء حوزتهم وبيضتهم، ويغاورون أعداءهم ويطلبون ثأرهم، وينالون بها المغانم، فكان حبّهم لها، وعظم موقعها عندهم، على حسب حاجتهم إليها، وغنائهم عنها، وما يتعرفون من بركتها ويُمْنها" [64]

**خاتمة**

جدلنا هذا المقال على ثنائيّة طرفاها سياسة الخيل وسياسة الشّعر على الخيل عسى أن نقف على منزلة هذا الحيوان من حياة الشّاعر العماني حمد بن عيسى بن صالح الحارثي ومن أدبه. فتبيّن لنا بما لا يدع للشّكّ مجالا أنّ حديث الخيل في ديوان أبي الفضل قد حلّ محلاّ رفيعا. وفي هذا الحديث ما أكّد أنّ دهر الشّاعر كلّه كان حلّا وارتحالا داخل سلطنة عمان وخارجها. فبسبب ما أنيط بعهدته وعهدة والده من مسؤوليات جسام عظام كان كثير القيام قليل القعود. بل كان " مفرشه صهوة الحصان ". وإذا تركنا جولات أبي الفضل وصولاته التي لا تنتهي في البراري والصّحاري إلى ديوانه عموما وقصائده الموسومة بـ" الخيليات" خصوصا ألفينا مدوّنة غزيرة تؤكّد محافظته على ما استقرّ عند السّلف من عناية بالخيل واحتفاء بها من جهة وتؤكّد ثقافة الشّاعر الواسعة بتاريخ الخيل عند العرب وبنصوصهم النّثريّة والشّعريّة حولها من جهة ثانية. وفي هذا المدوّنة تضايف الطّارف والتّليد تضايفا لم يحرم أبا الفضل من أن يكون علما في رأسه نار إذا أخذ الدّارسون والنّقاد بأطراف الحديث عن أعلام الخيل في الشّعر العماني الحديث.

---

**هوامش الدراسة:**

[1] - محسن الكندي، الشّعر العماني في القرن العشرين، دمشق، دار الينابيع، ط.1، 2007، ص. 11.

[2] - محمد بن عيسى بن صالح الحارثي، ديوان أبي الفضل، ص.5.

[3] - محسن الكندي، الشّعر العماني في القرن العشرين، ص.47.

[4] - روى أن ابن عباس رضي الله عنه قال :أول ما انتشر في العرب من تلك الخيل أن قوماً من الأزد من أهل عُمَان، قدموا على سليمان ابن داود عليه السلام بعد تزويجه بلقيس ملكة سبأ، فسألوه عما يحتاجون إليه من أمر دينهم ودنياهم، حتى قضوا من ذلك ما أرادوا، وهموا بالانصراف؛ فقالوا :يا نبي الله! إن بلدنا شاسع، وقد أنْفَضْنا من الزاد، فَمُرْ لنا بزاد يبلغنا إلى بلدنا، فدفع إليهم سليمان فرساً من خيل داود، وقال :هذا زادكم! فإذا نزلتم فاحملوا عليه رجلاً، وأعطوه مِطْرَداً، واحتطبوا وأورُوا ناركم، فإنكم لن تجمعوا حطبكم وتُوروا ناركم حتى يأتيكم بالصيد. فجعل القوم لا ينزلون منزلا إلا حملوا على فرسهم رجلاً بيده مطرد، واحتطبوا وأوْرَوْا نارهم؛ فلا يلبثون إلا

[24] - واصف بطرس غالي، تقاليد الفروسيّة عند العرب، القاهرة دار المعارف، 1960، ص.50

[25] - محمد بن عيسى بن صالح الحارثي، ديوان أبي الفضل، ص. 372.

[26] - محسن الكندي، الشّعر العماني في القرن العشرين، ج2، ص. 48.

[27] - محمد بن عيسى بن صالح الحارثي، ديوان أبي الفضل، ص.228.

[28] - المصدر نفسه، ص. 230.

[29] - المصدر نفسه، ص.ص.232- 233.

[30] - ابن هذيل الأندلسي، حلية الفرسان وشعار الشّجعان، ص.29.

[31] - محمد بن عيسى بن صالح الحارثي، ديوان أبي الفضل، ص. 235.

[32] - المصدر نفسه، ص.318.

[33] - المصدر نفسه، ص.329.

[34] - المصدر نفسه، ص.225.

[35] - المصدر نفسه، ص 240.

[36] - ابن هذيل الأندلسي، حلية الفرسان وشعار الشّجعان، ص29.

[37] - محمد بن عيسى بن صالح الحارثي، ديوان أبي الفضل، ص.222.

[38] - ابن هذيل الأندلسي، حلية الفرسان وشعار الشّجعان، ص. 32.

[39] - محمد بن عيسى بن صالح الحارثي، ديوان أبي الفضل، ص.382.

[40] - المصدر نفسه، ص. 242.

[41] - المصدر نفسه، ص. 372.

[42] - المصدر نفسه، ص.ص.319- 320.

[43] - ابن منظور، لسان العرب، مادة (ف، ر، س).

[44] - الحسن الغنداجي، أسماء خيل العرب وأنسابها وذكر فرسانها، تحقيق محمّد علي سلطاني، دمشق، دار العصماء، ط.1، 2007، ص.13.

[45] - محمد بن عيسى بن صالح الحارثي، ديوان أبي الفضل، ص.237.

[46] - الْخَيْلُ أَعْلَمُ بِفرْسَانِهَا . قال أبو عبيد :يعني أنها قد اخْتَبَرَتْ ركابها فهي تعرف الكفل من غيره. ومعنى المثل اسْتَغْنِ بمن يعرف الأمر. مجمع الأمثال للميداني.

[47] - المصدر نفسه، ص. 17.

[48] - الرّحلة " في القصيدة كمرحلة الهامشيّة في طقس العبور ، هي طقس انتقال بعد مرحلتين ، فالشّاعر في هذا الجزء من القصيدة كالعابر في مرحلة الهامشية ، ليس في مكان ثابت و إنّما هو على العكس من ذلك ، يقطع قفرا موحشا تهدّده فيه مخاطر ومتاعب ومع ذلك فإنّ مطيّته النّاقة هي التي تلوّح إلى نجاحه و يبدو أنّ إلحاح الشاعر الجاهليّ على الوصف المفصّل لخصائص ناقته الجسديّة والمزاجيّة ... يرجع إلى قلقه أو إلى اهتمامه بمقدرته الجسديّة والنّفسيّة على رحلة الانتقال من أطلال الدّيار إلى مواطن القبيلة أي من الطّفولة إلى الرّجولة" سوزان ستتكيفيتش، القصيدة العربية وطقوس العبور دراسة في البنية النّموذجيّة، مجلّة مجمع اللّغة العربيّة بدمشق، الجزء 1، المجلّد 60، جانفي 1985، ص. ص. 64-65.

[49] - ولد سنة (1870) وتوفي (1 مايو 1940)، عالم وشاعر ورجل دولة من البربر الإباضيّة وشخصيّة بارزة في تاريخ ليبيا . انظر أبو المظان الحاج إبراهيم، سليمان الباروني باشا في أطوار حياته، جزءان، المطبعة العربية، الجزائر، 1959.

قليلاً حتى يأتيهم صاحبهم بصيد من الظباء والحُمر والأرْوَى، فيأتيهم بما يكفيهم وفضلاً عن ذلك، فقال الأزديون :ما لفرسنا هذا اسم إلا (زاد الراكب)؛ فكان ذلك أول فرس انتشر في العرب من تلك الخيل. فأصل فحول العرب من نتاجه. ابن هذيل الأندلسي، حلية الفرسان وشعار الشّجعان، تحقيق محمد عبد الغني حسن، دار المعارف للطبّاعة والنّشر،2018، ص. ص .30 .31.

[5] - محمد بن عيسى بن صالح الحارثي، ديوان أبي الفضل، ص. ص. 4- 5.

[6] - المصدر نفسه، ص.4

[7] - المصدر نفسه، ص.5.

[8] - ابن منظور، لسان العرب، مادّة (خ، ي، ل).

[9] - محمد بن عيسى بن صالح الحارثي، ديوان أبي الفضل، ص. ص. 231- 232.

[10] - أبو عثمان بن بحر الجاحظ، كتاب الحيوان، تحقيق محمّد عبد السّلام هارون، مصر، شركة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده، ط.2، 1965، ج.2، ص.448.

[11] - الْخَيْلُ أَعْلَمُ بِفرْسَانِهَا، قال أبو عبيد :يعني أنها قد اخْتَبَرَتْ ركابها فهي تعرف الكفل من غيره. ومعنى المثل اسْتَغْنِ بمن يعرف الأمر. أبو الفضل الميداني، مجمع الأمثال، تحقيق محيي الدين عبد الحميد، بيروت، دار المعرفة، د.ت، ج.3، ص. 238.

[12] - محمد بن عيسى بن صالح الحارثي، ديوان أبي الفضل، ص.243.

[13] - ابن هذيل الأندلسي، حلية الفرسان وشعار الشّجعان، ص.29.

[14] -ابن منظور ، لسان العرب ، بيروت ، دار صادر ، مادّة (ع، ت، ق).

[15]- المرجع نفسه، مادّة (ج، و، د).

[16] - محمد بن عيسى بن صالح الحارثي، ديوان أبي الفضل، ص. ص.403- 404.

[17] - محسن الكندي، الشّعر العماني في القرن العشرين، ج.2، ص.49.

[18] - يروى عن الرسول: "المنفق على الخيل كباسط يده بالصدقة لا يقبضها، وأبوالها وأرواثها عند الله يوم القيامة كذكيّ المسك " حلية الفرسان، ص.40.

[19] - المرجع نفسه، ص .40.

[20] المرجع نفسه، ص.41.

[21] - محمد بن عيسى بن صالح الحارثي، ديوان أبي الفضل ص.372.

[22] - عن حضور الخيل في النّصّ القرآني ننظر سورة " العاديات " والآية 60 من سورة الأنفال، وعن حديث النّشأة نكتفي بهذا الشّاهد " قال على بن أبي طالب رضي الله عنه :قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: لما أراد الله تعالى أن يخلق الخيل قال للريح الجنوب: إنّي خالق منك خلقاً فأجعله عزًّا لأوليائي، ومذلة لأعدائي، وحمى لأهل طاعتي، فقالت الريح :اخلق، فقبض منها قبضة فخلق فرساً، فقال له :سميتك فرساً، وخلقتك عربياً، وجعلت الخير معقوداً بناصيتك، والغنائم مَحُوزَة على ظهرك، والعز معك حيثما كنت، آثرتك على غيرك من الدواب، وجعلتك لها سيداً، وعطفت عليك صاحبك، وجعلتك تطير بلا جناح، فأنت للطلب، وأنت للهرب، وسأحمل على ظهرك رجالاً يسبحوني ويكبروني ويهللوني، تسّبح إذا سبحوا، وتهلل إذا هللوا، وتكبرَّ إذا كبروا" ( حلية الفرسان ، ص .27). ولمزيد التوسع انظر محمد عجينة، موسوعة أساطير العرب عن الجاهلية ودلالاتها، ص 283 وما بعدها.

[23] - محمد بن عيسى بن صالح الحارثي، ديوان أبي الفضل ص.247.

- الحارثي أحمد بن عبد الله: ديوان أبي الحكم، جمع وتحقيق جوخة الحارثي، مسقط، جامعة السّلطان قابوس، مركز الدّراسات العمانيّة، ط.1، 2014.
- الزّبيدي، محمد مرتضى تاج العروس من جواهر القاموس، تحقيق جماعة من المختصين، الكويت، المجلس الوطني للثّقافة والفنون ،1965.
- ابن سعيد المغربي، علي بن موسى: نشوة الطرّب في تاريخ جاهلية العرب، تحقيق نصرت عبد الرّحمان، عمان، مكتبة الأقصى، 1982.
- الغنداجي، الحسن: أسماء خيل العرب وأنسابها وذكر فرسانها، تحقيق محمّد علي سلطاني، دمشق، دار العصماء، ط.1، 2007.
- الكندي، محسن: الشّعر العماني في القرن العشرين، دمشق، دار الينابيع، ط.1، 2007.
- عجينة، محمد: موسوعة أساطير العرب عن الجاهليّة ودلالاتها، بيروت – تونس، دار الفارابي، دار محمد علي للنّشر، 2005.
- المناعي، مبروك: في إنشائيّة الشّعر العربي، تونس، دار محمد علي الحامي، مركز النّشر الجامعي، ط.1، 2006.
- ابن منظور، أبو الفضل جمال الدّين، لسان العرب، بيروت، دار صادر، د.ت.
- الميداني، أبو الفضل: مجمع الأمثال، تحقيق محيي الدين عبد الحميد، بيروت، دار المعرفة، 1955.
- ابن هذيل الأندلسي، علي بن عبد الرحمان: حلية الفرسان وشعار الشّجعان، تحقيق محمد عبد الغني حسن، دار المعارف للطّباعة والنّشر، د.ت.
- واصف، بطرس غالي: تقاليد الفروسيّة عند العرب، القاهرة دار المعارف، 1960.

**الدّوريات**

- ستتكيفيتش، سوزان: القصيدة العربية وطقوس العبور دراسة في البنية النّموذجيّة، مجلّة مجمع اللّغة العربيّة بدمشق، الجزء 1، المجلّد 60، جانفي 1985، ص. ص. 55- 85.


[50]- محمد بن عيسى بن صالح الحارثي، ديوان أبي الفضل، ص.ص.179-180.

[51] - أحمد بن عبد الله الحارثي، ديوان أبي الحكم، جمع وتحقيق جوخة الحارثي، مسقط، جامعة السّلطان قابوس، مركز الدّراسات العمانيّة، ط.1، 2014، ص. 8.

[52] - المصدر نفسه، ص. ص. 179- 180.

[53] - مبروك المناعي، في إنشائيّة الشّعر العربي، تونس ، دار محمد علي الحامي ، مركز النّشر الجامعي ، ط.1، 2006، ص. 108.

[54] - محمد بن عيسى بن صالح الحارثي، ديوان أبي الفضل، ص.182.

[55] - المصدر نفسه، ص .242.

[56] - المصدر نفسه، ص.318.

[57]- المصدر نفسه، ص322.

[58] - ابن منظور، لسان العرب، مادّة (ذ. ك. ي).

[59] - الزّبيدي، محمد مرتضى تاج العروس من جواهر القاموس، تحقيق جماعة من المختصين، الكويت، المجلس الوطني للثّقافة والفنون ،1965، ج.15، ص.523.

[60] - ابن هذيل، حلية الفرسان وشعار الشّجعان، ص.83.

[61] - المرجع نفسه، ص.84.

[62] - المرجع نفسه، ص، 84.

[63] - محمد عجينة، موسوعة أساطير العرب عن الجاهلية ودلالاتها، بيروت – تونس، دار الفارابي، دار محمد علي للنشر، 2005، ص.291.

[64] - ابن هذيل، حلية الفرسان وشعار الشّجعان، ص.43.

**ثبت في مصادر البحث ومراجعه**

**المصادر**


- الحارثي، حمد بن عيسى بن صالح: ديوان أبي الفضل، تحقيق حسن بن خلف الرّيامي، سلطنة عمان، مكتبة الضّامري للنّشر والتّوزيع، سلطنة عمان، ط.1، 1995.


**المراجع**


- إبراهيم، أبو المظان الحاج: سليمان الباروني باشا في أطوار حياته، جزءان، المطبعة العربية، الجزائر، 1959.
- الجاحظ، أبو عثمان بن بحر: كتاب الحيوان، تحقيق محمّد عبد السّلام هارون، مصر، شركة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده، ط.2، 1965.